

النحو العربي بين التفسير والتفسير

دكتور : محمد احمد الشامي

الأستاذ المشارك بكلية الآداب

وعميد كلية الآداب

جامعة أمدرمان الإسلامية

مقدمة :

قد عجمت عود النحو فوجدته صلباً ولم يكن الأمر كما كنا نسمع من مشايخنا من أنك ترى النحو أسداً فإذا دخلته وجدته خروفاً، وكدت أقول مع المبرد حين يأتيه شخص ليقرأ عليه كتاب سيبويه [هل ركبت البحر] أو أقول مع القائل :- [على أنني راضٍ بأن أحمل الهوى فأخلص منه لا على ولا ليا] غير أنني عدلت عن ذلك الى القول مع القائل «سعاد التي اضناك حب سعاد». فعشت في كتب النحاة منذ غضاضة العمر حتي هذا اليوم الذي تجاوزت فيه الخمسين . وهي فترة زمنية كافية لأن يكون الانسان رؤية فيما احسب تعينه على فهم النحو ودرويه ومسالكه بحيث يتمكن من سلوك الطريق الذي يساعده ان شاء الله على فهم النحو وتقريب قصيه، وشغلت كثيراً بهوم هذا النحو العربي كغيري من الحاديين لاسيما وان شغفى بالعربية يحذوني دوماً لتمكين الآخرين منها. من الطلاب والأصحاب سواء أكان ذلك عن طريق المدارس ام المساعة ام المراسلة ولكم وددت ان اجمع ما يعنى لى من مسائل وأطروحات فى مقام واحد استمع لراى الآخرين فيها أناقشهم ويناقشوننى أبادلهم الراى بالراى والمحاورة بالمحاورة حتى تتجلى لنا الحقائق وتستبين المعالم فترتاح قليلاً من وعثاء السفر لا سيما فى عصرنا هذا الذى فقد مثل ذلك الأعرابي الذى اجاب على الأخفش حين سألّه بعد حضور مجلسه الذى كان يقوم فيه بتدريس النحو:- «ما نسمع أذا العرب؟» فقال الاعرابى الذى كان يستمع فى تعجب تتكلمون بكلامنا فى كلامنا مما ليس من كلامنا.(١)

هذا وابناء عصرنا يحملون كثيراً من الأسئلة التى يحاولون الإجابة عنها فمنهم من بدأ فى الإجابة ومنهم من لا ندرى أهى من مخطوطاته أم اختطفته المنيا وفى نفسه شىء من أسئلته كأستاذنا المرحوم الدكتور حسن عون الذى قال :- « ان السؤال الذى يفرض نفسه علينا الآن بعدما تبين من الظروف الخاصة التى أحاطت بالنحو العربى ونشأته وبعلمائه ومنابع مادته وبحوافره نقول :- «ان السؤال الذى يفرض نفسه علينا الآن هو:-

* هل هناك من سبيل لوضع النحو العربى ولا نقول اصلاح النحو العربى لأنه ليس فاسداً - وضعاً جديداً فى الاطار الذى ينبغى أن يكون فيه حتى نستطيع ان نخفف من أعباء دراسته، وان نبث الحياة فى مسائله، وفصوله وأبوابه وأن نخلصه مما علق

به وليس منه وأن نجعله يساير الظروف اللغوية التي نعيشها.
إلى ان يقول :- « نعم هناك سبيل لوضع النحو العربى لا بدّ ان يوائم ظروفنا
وينسجم مع تطورنا الثقافى والاجتماعى. وهذا هو الذى عقدنا العزم عليه. (٢)
ولكن فيما احسب ان الاستاذ حسن عون لم يشف غليل نفسه مما ذكره خاصة فى
مسألة إعراب الأفعال اذ أذكر أنه عندما كان يناقشنى فى مدرج كلية الآداب بجامعة
القاهرة الأم وبحضور الاستاذ الدكتور رمضان عبدالتواب والاستاذ الدكتور عبدالله
درويش فى قولى بأن الفعل المضارع معرب اطلاقاً قال إنّه ذهب الى أكثر من ذلك ذهب
الى اعراب الأمر والماضى ولكم تمنيت أن أرى ذلك مكتوباً وهو أمر لم أصل اليه حتى
الآن.

أقول ان ابناء عصرنا فى نفوسهم كثير من القضايا والمسائل ووجهات النظر وهم فى
النهاية كما احسبهم وأصلون الى اقتناع محدد بأن الآراء من حيث صوابها وخطؤها
تخدم درسنا النحوى . فتعديل الخطأ وتأكيد الصواب هو من صميم عمل الباحثين
ودأبهم وان المراحل المختلفة التى مرّ بها النحو العربى على مسار الزمن الطويل كفيلة
بالوقفة تلو الوقفة لتبعث فيه العافية وتجدد منه الشباب فليس ثمة اقتناع على الإطلاق
باحتراق النحو وإلا لذهب النحو أدراج الرياح وأصبح من الذكريات الخالية من
مخلفات التاريخ كما أننا لا تقنعنا أبداً عبرات الباكين على السالفين منه فنردد مع
علقمه بن عبده الأسدى :-

هل ما علمت وما استودعت مكتوم

أم حبلى اذ نالتك اليوم مصروم

أم هل كبير بكى لم يقضِ عبرته

إثر الأحية يوم البين مشكوم

لم أدر بالبين حتّى أزمعوا ظعنأ

كل الجمال قبيل الصبح مزموم

ولكنّا نقول :-

الأحبذا هند وأرض بها هند * * * وهند أتى من دونها النأي والبعد

إن حقيقة النحو العربى بطريقته العربية تلك التى كانت رهينة النص وحبيسة التنوق
قد بعُدت الآن فغداً محكوماً بالبراعة التى توسعت فى العلل وكثرت فيها الاجتهادات
التي ربما كان بعضها قاصراً عن بلوغ مراده، فى وضع يقنع الواقف أمامه. فوجدنا

التخريج يصدر فى مهارة، والتفسير يحدث ببراعة كما وجدنا بعض أهل النحو من سلفنا يصطلحون على مسائل أطلقوا على بعضها النكات النحوية او عويصات المسائل، مما جعل بعض المتأخرين يجنح لتضعيفها باطلاق قد عده لطيفاً مثل قوله :- «إن نكات النحو كالورد تشم ولا تدعك، وليت شعري هل مثل هذا يصل بالباحث العلمى الى ما يرضى طموحه. ان هذا لم يقنع من القدماء طائفة ولم يحدث عند المحدثين ذكراً ولما كنا هنا فى مجال ذكر جهود علمائنا فى النحو لابد من الإشارة الى أمر مهم نوثق فيه نحائنا السالفين فهم على ما رأيت لم يعرفوا بالتدليس كما هو الشأن عند بعض أصحاب الفنون. فرؤيتهم ومقولاتهم نقلاً ووصفاً هي من عندهم ومن قناعتهم ولم تكن موضوعاتهم طائشة او معممه ولكن هي الحقيقة التي اقتنعوا بها حسب جهدهم وكسبهم ولم نعرف منهم من طلق النحو فى بينونه صغرى او كبرى وتلك محمداً لأهل علم أجلاء كان الاخلاص رائدهم، والوفاء سلوكهم ، حتى نهضوا بواجبهم وفق ما اقتضته ظروفهم ، وحياتهم وأوضاعهم الثقافية والاجتماعية.

إن نحائنا من سالف أيامهم قد اجتهدوا واستخدموا الأقيسه التي بدت لبعضهم كالجربانات كما قال ابو منصور بن الجيان « قياسات النحو تتوقف ولا تترد كقميص له جربانات فصاحبه كل ساعة يخرج رأسه من جربانه».(٢)

وأظن ان الخروج من جربانه الى أخرى لا يمكن ان يصل بالانسان الى غايته الكاملة مادامت العلوم كلها لا تدرك قيعانها فى عمر المرء القصير وكما قيل: فان العلم بحر زخار لا يدرك له من قرار. وطود شامخ لا يسلك الى قننه ولا يصار. من اراد السبيل الى استقصائه لم يبلغ الى ذلك وصولاً، ومن رام الوصول الى احصائه لم يجد. الى ذلك سبيلاً . كيف وقد قال تعالى: « وما اوتيتم من العلم إلا قليلاً».

ورحم الله الزركشى فى آخر مقولته:- «فان الصناعة طويلة والعمر قصير وماذا عسى ان يبلغ لسان التقصير ...

من اجل هذا دعونا ننظر فى درسنا النحو بما يلائم روحه ويساير طبيعته عسانا نجيب أبناء عصرنا فيه فيقدموا على أبوابه وفصوله ومسائله بما يخدم لغة القرآن العظيم.

هذا وهنا أشير الى وجهه نظر تمثلت لى خلال دراستى للنحو وتدرسه تلك هي ان دراسة النحو على طريقة القدماء من خلال اللغة نفسها هو ما ينبغي ان يدور فيه تعليمه ومدارسته معنى وشكلاً وذلك مفهوم أحسب ان التماساته لم تنعدم فى يوم من

الايام، وخلال الحقب المتتالية من علماء العربية الأجلاء. ولا أظن ان نواياهم وأعمالهم كانت قاصرة في مجموعتهم. وكل متناول لمسائل النحو وقضاياها الاساسية في العربية لا أظنه يغفل الاعتبار الكافي الذي يلزمه أن يحفظ لسلفنا الصالح كل اجتهادهم واخلاصهم للعلم والتجرد له. لكننا نود الإشارة الى حقيقة مهمة تتمثل في أن النحو العربي تشابكت فيه عدة عوامل نتج عنها مايلي:-

أ/ تذاجت على النمو المذاهب المختلفة .

ب/ احتضن النحاة اللهجات العربية التي اعترفوا بها فقط في مجال الاصلاح النحوي الذي اتفق عليه

ج/ كثرت الاجتهادات في التخريج المرقق.

د/ قل الحافز نحو الترغيب .

هـ/ تدخلت المعالجة الشكلية المفرطة مع الاصرار والمحافظة على القائم من مسائل النحو والمتابعة القاسية لكل ما جدّ وظهر، دون الاهتمام بعامل الزمن وتنوع الرغبات والبيئات ووحدة العلوم العربية التي أسسها جلة من الاوائل والسير على طريقة العرب في لغتهم بمختلف لغاتها في براح وإفساح .

عوامل الحسر

أ/ تختلف الأسباب التي تدعو لنشأة ظاهرة ما . فمنها أحياناً طبيعة الظاهرة ذاتها وما تفرضه ومنها ما هو من صنع الانسان نفسه فمثلاً ما نحن بصدد من عوامل التفسير في النحو العربي. فاننا نجد الانبعاث والترهل الذي أصابه على يد أهله بسبب حرصهم على استقصاء كل ما يتعلق بمسائله سالكين لذلك كل السبل التي تيسرت لهم من حركة وثقافة وعلوم. مما أدى بطبيعة الحال الى فتور التلاميذ وقصور همهم .

ب/ عامل يعود الى صاحب الصنعة نفسه حينما حاول بعضهم أن يتكسب بهذا العلم ويتخذ مظهراً اجتماعياً يجلب له الوجاهة والتفرد في مجتمعه فصار يدخله في مسائل لا تسمن ولا تغني من جوع ومن ثم نجد من دخل في ديار النحو طلباً للمال ومناصرة للمذاهب فغدا النحو مخيفاً فشاب من شاب خوفاً منه ومات من مات كمداً ومكايدة في مجالسه وهذا فيما أحسب من العوامل الحادة التي جعلت النحو يتحرك في دائرة حرمة كثيراً من الافكار النيرة والوقفات الصائبة. ولننظر فيما يأتي من الاقوال كنماذج لهذه المسألة فالنحاة أحياناً يتجاوزون لأكثر من عله كسؤال السائل عن زيد في

(قام زيد) لم رفع؟ فيقال لأنه فاعل مرفوع [هذه العلة الأولى]
 فيقول لم رفع الفاعل؟ فيقال للفرق بين الفاعل والمفعول (هذه العلة الثانية) - فيقول فلم
 لم تعكس القضية بنصب الفاعل ورفع المفعول؟ فيقال لأنَّ الفاعل قليل والمفعولات كثيرة
 فأعطى الأثقل الذي هو الرفع الفاعل وأعطى الأخف الذي هو النصب للمفعول لأنَّ
 الفاعل واحد والمفعولات كثيرة، ليقل في كلامهم ما يستثقلون ويكثر في كلامهم ما
 يستخفون . فهل مثل هذا يزيدينا علماً، أظن الاجابة سالبة اذ لو جهلنا ذلك .لم يضرنا
 جهله لانه في الواقع رفع الفاعل الذي هو مطلوب الدارس. هذا ومن وجوه التفسير
 ذلك الحديث الذي جرى بين من ينتحل النحو وآخر ذى إلمام - فى قول كثير:

وأنت التى حبيت كل قصيرة *** الى وما تدرى بذاك القصائر

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد *** قصار الخطا شر النساء البحار

قال بعضهم البحار مبتدأ وشر النساء خبره وقال بعضهم يجوز ان يكون شر النساء
 هو المبتدأ والبحار خبره وكان هناك من يرى أن الشاعر لا يريد إلا أن يخبر أن
 البحار شر النساء وأنكر صحة غيره... وجعل يكثر من ذكر الموضوع والمحمول،
 ويورد الالفاظ المنطقية التى يستعملها أهل البرهان فقلت له أنت تريد أن تدخل
 صناعة المنطق فى صناعة النحو وصناعة النحو تستعمل فيها مجازات ومساحات لا
 يستعملها أهل المنطق وقد قال أهل الفلسفة يجب ان تحمل كل صناعة على القوانين
 المتعارفة بين أهلها وكانوا يرون أن إدخال بعض الصناعات فى بعض انما يكون من
 جهل المتكلم أو عن قصد منه للمخالطة واستراحة بالانتقال من صناعة الى أخرى
 إذاضاعت عليه طرق الكلام.(٤)

ومما يؤيد هذا المنحى ذا الجنور ما روى عن سبب وضع الفراء للحدود واملائه:
 ان جماعة من أصحاب الكسائى صاروا اليه وسألوه أن يُملى عليهم ابيات النحو
 ففعل فلما كان المجلس الثالث قال بعضهم لبعض ان دام هذا على هذا علم النحو
 الصبيان . والوجه أن يُقعد عنه ففقدوا . فغضب وقال : سألونى القعود . فلما قعدت
 تأخروا والله لأملين النحو ما اجتمع اثنان فأملى ذلك ست عشرة سنة .

وعند انعام النظر إلى هذا النص ترى من يريد النحو طلاس لايقتها كل الناس حتى
 لايشاع بينها نرى إصرار الفراء على التيسير وما أظن الرجل الا مريداً بذلك الخروج
 من حزن إلى سهل حتى يستجم الدارس ويلتقط أنفاسه ويدفع عنه الملل وما أظن أولئك
 الممتنعين والقاعدين إلا آمين الحزن من المسائل وبهذا يقطعون ظهر الدارس ويبتئون

قواه الذهنية والبدنية، فيقف دون مرامه فيكون لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. وإذا كان أساساً الهدف من تعليم النحو عند قدمائنا الاجلاء محاولة فهم القرآن وإدراك معانيه فما العيب في أن يفهمه الصبيان وكان من الجميل جداً عند المرغبين الميسرين أن تتجه همهم للتعلم في الصوت وفي اللفظة وفي الجملة مما اقتضاهم طرق كل باب يفضي إلى الافصاح عن اسرار التركيب القرآني، ومن ثم نتابع النحاة في هذه القرون الممتدة يؤصلون، ويفصلون، ويشرحون ويعللون وهم في ذلك لا يغفلون لحظة عن الهدف الذي من أجله، ولما علم النحو هذا.

وأحسب أن هذا الفهم والهدف هو الذي دفع أبا عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٨هـ) إلى تأليف كتابه في مجاز القرآن محاولاً بما أوتي من قوة ملاحظة ومشاهدة دقيقة أن يسلك بدرس النحو سبلاً أخرى تربطه بالنصوص وتوسع من دائرته وتسهل عويصه الصناعي. فاتخذ من بعض المسائل موضوعاً للتأمل في ربطها بالنص وكان يهدف من وراء ذلك العمل إلى الكشف عن الحقيقة العلمية الكامنة وراء النصوص. فجاء عمله طيباً وفق جهده فتناول مسائل متعددة من تقديم وتأخير وحذف وغيرها.

وعله بهذا العمل فيما نحسب يود أن يسعى إلى طريقة حسنة تفيد في تناول مسائل النحو وقضاياها بدل البحث عن العلل الأوائل والثواني وكلها كانت من الطرق التي تلمتس لفهم طريقه لغة العرب ونحوها بمعناه الواسع المفيد. وهذا التناول قد فتح الباب أمام نظرات جديدة للنحو تتمثل في الجهد الذي ظهر في القرن الخامس على يد العلامة الشيخ عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ).

فكان النحو عنده ليس علامات الاعراب وحدها، أو النظر إلى أواخر الكلمات وليست البلاغة في التشبيه وبراعته ومحدودية النظر وإنما سبيل العربية المطلوب هو الإبانة والفهم ووسائل العربية كثيرة، منها التنكير والتعريف والتقديم والتأخير والفصل والوصل والتحول من الاسم إلى الفعل ومن صيغة لأخرى.

وقد كان الرجل عظيماً حين أسند وجوه البيان والافهام إلى علم النحو وعاب على بعض القوم زهدهم في النحو وعلى آخرين اغفالهم لمعناه الواسع الجميل. قال عن المستهينين «وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له أو اصغارهم أمره وتهاونهم به فصنيعهم في ذلك أشنع.. وأشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله وعن معرفة معانيه وذلك بأنهم لا يجنون بدءاً من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه. إذا كان قد علم أن الالفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الاعراب هو الذي يفتقها، وأن الاغراض كامنة فيها. حتى

يكون هو المستخرج لها.. ولا ينكر ذلك إلا من ينكر حسه وإلا من غلط فى الحقائق نفسه، وإذا كان الأمر كذلك فليت شعرى ما عذر من تهاون به وزهد فيه ولم ير أن يستسقيه من مصبه ويأخذه من معدنه ورضى لنفسه بالنقص والكمال لها معرض وأثر الغيبة وهو يجد الى الربح سبيلاً»^(٥).

فبعد القاهر بمثل هذه الملاحظات يؤكد أن أمر التدريس النحوى مرتبط بفك المغلق واستخراج الاغراض الكامنه وليس هو أمر ما يلحق أواخر الكلام. هذا والذي أصاب النحو قبل فتره هذا العالم قد أبعده كثيراً عن هذه النواثر وصار مسائل كالالغاز عند بعضهم وتلاعبا بالصور والأشكال كما فى قرينه الصرف. كذلك الأقوال التى نعرفها من مثل: كيف تبنى من كذا كذا، أو ماهو وزن كذا ثم ما وزن عزويت أو قولهم لو سميت رجلاً بكذا فكيف يكون الحكم^(٦) فمثل هذا وما أشبهه لا يثمر الا كد الفكر واضاعة الوقت وجلب الوهن وعكسه نجده فى ترغيب عبدالقاهر الجرجانى فى بعض المسائل البلاغية المختلطة بالأداء النحوى مما نحسبه صنيعة محببا للنفس الطموحة التى تشرب لفهم العربية بأصلها ولننظر فى مثال واحد تناوله فى الدلائل وهو «اشتعل الرأس شيياً»^(٧) نحن فى دراستنا النحوية نمثل به فى باب التمييز المحول عن فاعل دون تلمس الوجوه الجمالية فيه. والمعانى الجمّة التى يشتمل عليها كما يتناوله البلاغيون الحرفيون يقول:

«ومن دقيق ذلك انك ترى الناس اذا ذكروا قوله تعالى «واشتعل الرأس شيياً» لم يزيديا فيه على ذكر الاستعاره ولم ينسبوا الشرف الا اليها ولم يروا موجبا للمزية سواها هكذا ترى الأمر فى ظاهر كلامهم وليس الأمر على ذلك ولا هذا الشرف العظيم.. ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه الى الشيء وهو لما هو من سببه فيرفع به ما يسند اليه ويؤتى بالذى الفعل له فى المعنى منصوباً بعده مُبيناً أن ذلك الاسناد وتلك النسبه الى ذلك الأول انما كان من أجل هذا ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسه كقولهم طاب زيد نفساً وقرّ عمرو عينا.. وأشباه ذلك مما تجعل الفعل فيه منقولا عن الشيء الى ما ذلك الشيء من سببه.... وأعلم ان فى الآيه شيئاً آخر من جنس النظم وهو تعريف الرأس بالآلف واللام وافادة معنى الاضافة وهو أحد ما أوجب المزية ولو قيل واشتعل رأس فصيرح بالاضافة لذهب بعض الحسن فأعرفه^(٨).

وقال «أعلم أنه ليس النظم الا أن تضع الكلام الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيع عنها فينظر فى الخبر الى الوجوه

التي تراها فى قـولك زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد ومنطلق زيد المنطلق والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق وينظر الى التعريف والتكثير، والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والاضمار والظهار فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغى له» (٩).

هذا وعلى أية حال ان وضع النحو يحتاج الى معالجه واعيه ليس فيها على قدمائنا تطاول وليس فيها على المحدثين تهاون، فزماننا قد وهنت فيه الهمم وأشأم الناس وتيمن النحو وصار مدرسو النحو مع طلابهم كالمنكح الثريا سهيلاً، فالاستعداد فى النفوس حادث ليبلغ أهل العربية العربية على وجه يرضى الله ويرضيهم ويرفع عنهم كوالح المسائل وعويصاتها ويوجد لهم المصطلحات ومنابعها ويحبذ لهم منهج المتنوقين، والمستبصرين الذين يجمعون المتفرقات ويربئون عن الخلافات ويحسنون جمال القول فى براعة التركيب ويلاغه الفصحى ولا أحسبنا بمبتعدين عن الصواب ان جارينا قدما عنا فى روحهم الوثابة فى التعامل مع عصورهم فقد وجدناهم دوماً يشيرون الى حال العصر الذى يعيشون ويتعاملون معه بواقعية مشهودة فيصِفُون قصور الهمم وكثرة الشواغل كل هذا فى زمانهم فماذا يكون الحال فى عصرنا الذى صارت بضاعة العلوم فيه من حيث هى مزجاة اما النحو العربى فلا بواكى له .

وأما سدّ باب الاجتهاد على النحاة فى أى عصر من العصور فلا حجة فى ذلك لا سيما بعد التطور البشرى فى وسائل المعرفة وفى إدراكنا لنعم الله على عباده فقد يفتح الله لعالم بعد آخر من الأبواب مالم يتطرق إليه من المتقدمين أحد. ولا أظن الأمر يحتاج الى عرك أذن أو عراك أبدان وانما الفكر والرؤية والتريث بعد النظر والاستعداد. فالخلاف الذى لا يقوم على عصبية مذهبية فى النحو عند ابناء عصرنا لا يثير التخوف ولا يصد عن السبيل - فهم على استعداد حميد لقبول الرأى الآخر والرأى الموافق على وجه يجلى الغموض ويستبعد الحرفية المدلجة.

النحو والمناكفات

لم يطرح النحاة التشريب على بعضهم جانباً وإنما كانوا يتعمدون أحياناً اثارة المسائل فى الجامع وأمام الامراء ويعقدون المجالس لاحراج بعضهم بعضاً تارة، ولاظهار البراعة تارة أخرى، وللوصول الى المقاييس أو التصويب تارة ثالثة. ولعل الدارس للنحو يدرك تماماً المناظرات المختلفة والمجالس التى عقدت ودار فيها مثل هذا العمل، كالصنيع الذى نجده بين أعلام النحو العربى إذا استعرضنا النحاة البارزين

من أمثال سيبريه، وابن السراج والكسائي والفراء، والأخفش والمبرد والزجاج، وثلعب والزجاجي، والسيرافي، وابن كيسان، وابن برهان، وابن جنّي وابن الأنباري والزمخشري وابن مضاء وابن خروف، والشلويني وابن عصفور وابن الحاجب وغيرهم من اعلام النحو. لوجدنا لاكثرهم لقاءات ومحاورات وريوداً على من تعاطى هذه الصنعة من أقرانهم ومعاصريهم أو على من سبقهم يمكننا ان نجد بعضاً من ذلك في - مناظرة الكسائي واليزيدي، ومجلس أبي اسحق الزجاج وجماعته ومجلس ثعلب والمبرد ومجلس ابي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ومجلس الزجاج مع رجل غريب، ومجلس ثعلب مع ابن كيسان ومجلس ابي عثمان المازني مع ابي الحسن سعيد بن مسعدة الاخفش ولا يخفى ذلك الجمع المشهود الذي هبأه يحي البرمكي بين سيبيويه والكسائي في المسألة الزنبورية .

مما هبأ الجو في مجال النحو للبعد به عن التسهيل والترغيب فنشأ جيلٌ تعاطى النحو وبرع فيه براعة مشهودة مما جعل نفرّاً منهم يتخذة مباحاة فحال هذا العمل بين النحو للجميع وبين الناس، فظهرت المشكلات والمسائل العويصات كالأحاجي والمجالس والمناظرات في أمور نحسبها لم تعط النحو دفعات او تطوراً أو يجنى الدارسون منها ثمرة عملية تطبيقية ويمكن تصور هذا الذي نقول اذا رأينا الفتاوى النحوية التي ربما جاءت نتيجة للتطور الذي نشأ من خلال تلك الممارسات والمناظرات والمجالس والاحاجي. وسأسوق هنا أمثلة متنوعة على ذلك .

نموذج للمناكفات:

في نظري ان افتعال المسائل الصعبة أو السهلة في حد ذاته يدل على تعقيدات لا مبرر لها في مجال الدراسات النحوية والصرفية التي مجالها العطاء لا الحاجة ومما جاء في هذا مجلس أبي عثمان المازني مع يعقوب ابن السكيت (١٨٦ - ٢٤٤) جاء فيه :

« اخبرنا أبو اسحق الزجاج قال انبأنا أبو العباس عمر بن يزيد عن أبي عثمان قال :

جمعني وابن السكيت بعض المجالس فقال لي بعض من حضر: سله عن مسألة، وكان بيني وبين ابن السكيت ودّ، فكرهت أن اتجهه بالسؤال لعلمي بضعفه في النحو - [بمعناه العام] فلما أُلح عليّ قلت ما تقول في قول الله عز وجل « فارسل معنا أخانا نكل » (١٠).

ما وزن نكتل من الفعل ولم جزمه، فقال وزنه نفعول وجزمه لأنه جواب الأمر قلت فما ماضيه ففكر وتشوّر فأستحييت له. فلما خرجنا قال لي:- ويحك ما حفظت الودّ خلجتنى بين الجماعة فقلت:- والله ما أعرف فى القرآن أسهل منها قال فان وزن نكتل نفتعل من اكتال يكتال وأصله نكتيل فقلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ثم حذفت الألف لسكونها وسكون اللام فصارت نكتل^(١١).

الفتاوى النحوية:-

لقد تطور أمر المناكفات فاتخذ شكل فتاوى نحوية ليزداد الأمر تعقيداً ومن امثال ذلك ما تقول السادة النحويون أحسن الله توفيقهم فى قول العرب يا أيها الرجل. هل ضمة الرجل ضمة إعراب وهل الألف واللام فيه للتعريف؟

فكان جواب المكنى بأبى نزار :-

الضمة ضمة بناء وليست ضمة إعراب لأنّ ضمة الإعراب لأبد من عامل يوجبها إذ لا عامل هنا يوجب هذه الضمة والألف واللام ليست هنا للتعريف ... والصحيح أنها دخلت بدلاً من ياء ، وأيّ وإن كان منادى فنداؤه لفظيّ والمنادى على الحقيقة هو الرجل وجاءت إجابة الشيخ أبى منصور موهوب بن أحمد :- « ضمة اللام ضمة إعراب ولا يجوز أن تكون ضمة بناء ومن قال ذلك فقد غفل عن الصواب وذلك أن الواقع عليه النداء أيّ المبنى على الضم لوقوعه موقع الحرف والرجل وإن كان مقصوداً بالنداء فهو صفة أيّ محال أن يبنى أيضاً لأنه مرفوع رفعاً صحيحاً ولهذا أجاز فيه أبو عثمان النّصب على الموضع كما يجوز فى يا زيد الظريف... والألف واللام فيه للتعريف .

قال ابن الشجرى : الجواب والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب ان ضمة اللام ضمة اعراب لأن ضمه المنادى المفرد (المعرفة) لها باطراد منزلة بين المنزلتين فليست كضمة حيث لأن ضمة حيث غير مطردة وذلك لعدم اطراد العلة التى أو جبتها ولا كضمة زيد نحو خرج زيد لأن هذه حدثت بعامل لفظيّ (وذكر هنا كلاماً كثيراً أستغرق صفحة كاملة فى التعليل والاسترسال) الى أن يقول والألف واللام هنا لتعريف الحضرة كالتعريف فى قولك جاء هذا الرجل^(١٢).

هذا ولم تقف المناكفات وإنما امتدت إلى الأدباء والشعراء وغيرهم فتصدى أولئك للنحاة وعلمهم فنالوا منهم على طرائق مختلفة، وهذه نماذج من ذلك فيما بينهم كأصحاب صناعة وفيما بينهم وبين الشعراء والأدباء وغيرهم.

فَإِذَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مَا رَوَاهُ صَاحِبُ نَزْهَةِ الْأَلْبَاءِ أَنَّ أَعْرَابِيًّا وَقَفَ عَلَى حَلْقَةِ أَبِي زَيْدٍ فَظَنَّهُ جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ فِي النُّحُو، فَقَالَ لَهُ : - سَلْ يَا أَعْرَابِيَّ حَاجَتَكَ فَأَنْشُدَ عَلَى الْبَدِيهَةِ :

لَسْتُ لِلنُّحُو جُنْتُكُمْ *** لَا وَلَا فِيهِ أَرْغَبُ
أَنَا مَالِي وَلَا مَرِيءٌ *** أَبْدِ الدَّهْرَ يَضْرِبُ
خَلَّ زَيْدًا لَشَائِنُهُ *** أَيْنَمَا شَجَاهُ يَذْهَبُ
وَاسْتَمَعَ قَوْلَ عَاشِقٍ *** قَدْ شَجَاهُ التَّطَرَّبُ
هَمُّهُ الدَّهْرُ طِفْلَةٌ *** فَهُوَ فِيهَا يَشِيبُ (١٣)

هَذَا وَالَّذِي يَبْدُو أَنَّ لِهَذَا الْأَعْرَابِيَّ مَعْرِفَةً بِأَمْثَلَةِ النُّحَاةِ وَمُحِيطَهُمُ الَّذِي يَضْرِبُ فِيهِ زَيْدٌ عَمْرًا وَبِالْعَنَتِ الْحَادِثِ خِلَالَ مَدَاخِلَاتِهِمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ السُّودَانِيُّ التَّجَانِيَّ يُوسُفُ بِشِيرٍ :-

وَلَقِيتُ مِنْ عَنَتِ الزَّيُودِ مَشَقَّةً *** وَيَكَيْتُ مِنْ عَمْرٍو مِنْ إِعْرَابِهِ

وَقَالَ رُؤْيَةُ بْنُ الْعَجَاجِ لِيُونُسَ بْنِ حَبِيبٍ (١٤) :-

حَتَّى مَتَى تَسْأَلُنِي عَنْ هَذِهِ الْأَبَاطِيلِ وَأَزْوَاقِهَا لَكَ؟ أَمَا تَرَى الشَّيْبَ قَدْ بَلَغَ فِي رَأْسِكَ وَلَحِيتِكَ؟

وَكَانَ أَبُو حَاتِمٍ السَّجِسْتَانِيُّ وَهُوَ عَلَى عِلْمٍ بِاللُّغَةِ إِذَا التَّقَى هُوَ وَالْمَازْنِيُّ فِي دَارِ عَيْسَى بْنِ جَعْفَرٍ الْهَاشِمِيِّ تَشَاغَلَ خَوْفًا أَنْ يَسْأَلَهُ الْمَازْنِيُّ فِي النُّحُو (١٥).

وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ مِنَ الْعِلْمِ فِي هَذَا النُّحُو أَمَّا زَيْدٌ بِهَا الْمَازْنِيُّ لِأَنَّهُ كَانَ عِلْمًا فِي الْأَعْرَابِ وَإِنْ كَانَ مِنْ بَيْنِ أُولَئِكَ الْعُلَمَاءِ مَنْ بَرَعَ فِي الْجَمِيعِ كَالرِّيَاشِيِّ الَّذِي يَفْزَعُ إِلَيْهِ أَهْلُ الْبَصْرَةِ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ وَقَالُوا فِيهِ مَا قَالَ الرِّيَاشِيُّ انْقِيَادًا لِفَضْلِهِ وَرِوَايَتِهِ.

هَذَا وَمِنْ بَيْنِ مَا تَتَنَاوَلُ النُّحَاةُ فِي بَعْضِ شَعْرِهِ فَغَضِبَ مِنْهُمْ عِمَارُ الْكَلْبِيِّ وَسَجَّلَ ذَلِكَ فِي أُبْيَاتٍ قَالَ فِيهَا :-

مَاذَا لَقِيتُ مِنَ الْمُسْتَعْرَبِينَ وَمِنْ *** قِيَاسِ نُحُوهُمْ هَذَا الَّذِي ابْتَدَعُوا
إِنْ قُلْتَ قَافِيَةً بِكَرًا يَكُونُ بِهَا *** بَيْتٌ خِلَافَ الَّذِي قَاسُوهُ أَوْ ذَرَعُوا
قَالُوا لَحْنَتْ وَهَذَا لَيْسَ مُنْتَصِبًا *** وَذَاكَ خَفَضَ وَهَذَا لَيْسَ يَرْتَفِعُ
وَحَرَضُوا بَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ حُمُقٍ *** وَبَيْنَ زَيْدٍ فَطَالَ الضَّرْبُ وَالْوَجَعُ
كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ قَدْ احْتَالُوا لِمُنْطَقِهِمْ *** وَبَيْنَ قَوْمٍ عَلَى أَعْرَابِهِمْ طَبَعُوا (١٦)

وَمَا جَاءَ فِي هِجَاءِ النُّحَاةِ قَوْلُ يَزِيدَ بْنِ الْحَكَمِ الثَّقَفِيِّ :-

إذا اجتمعوا على ألف وواو *** رياء هاج بينهم جدال

وقال عبدالله الحضرمي للفرزدق بعد أن أنشد قوله :-

وغضّ زمان يا بن مروان لم يدع *** من المال إلا مسحاً أو مجلف

لم رفعت مجلف قال الفرزدق :-

بما يسوءك وينوءك لنا أن نقول وعليكم أن تتؤلوا. ثم هجاه بعد ذلك حين عرف الرجل

بما سعى في تخطئته والتقليل من شأنه إذا ظهر جانب الصواب فقال :-

فلو كان عبدالله مولى هجوته *** ولكن عبدالله مولى مواليا (١٧)

وجاء في الخصائص. قال أبو عبيدة معمر بن المثنى المازني ما أكذب النحويين! وهذا يعني استنكاره لبعض المسائل النحوية والرجل يريد فهماً آخر لا يعني رفضه للنحو من حيث هو وقال ما أكذب النحويين: يقولون إن هاء التانيث لا تدخل على ألف التانيث وهم يقولون علاقة فقيل لأبي عثمان المازني لم لم تفسر له ؟ فقال لم أفسر له لأنه كان أعظم من أن يفهم مثل هذا، يريد الفرق بين ألف اللاحق وهي هنا لللاحق وبين ألف التانيث (١٨).

بدع نحوية وصرفية

لقد أدخل المتكلمون بالعربية بدعا كثيرة عليها. حدث ذلك في صيغها الصرفية وتراكيبها النحوية وضوابطها اللغوية وكان ذلك يحدث في عصور مختلفة، وأخطر تلك البدع فيما أحسب تجاهل الفصحى ومحاولة استبدالها بالعامية وعدم التعامل معها حتى في حجات الدراسة وقاعات المؤتمرات ومن أفندمها أن يكون أستاذ اللغة العربية نفسه من المتحدثين بالعامية لمن يقوم بتدريسهم العربية أو يلتزم السكون كما هو الشائع في كل المفردات والعبارات جريا على المقولة المعروفة (سكن تسلم) بينما يعلم أولو الألباب أن العربية لغة حركة دائبه وتتمثل حيويتها في تلك الحركة.

كذلك تتسع الفداحة حيث يقدمون دروسهم باللهجة الدارجة بل يزداد المرء تعجبا حين يقف على كثي من الرسائل الجامعية المعدة بالعربية في مختلف الجامعات العربية فاذا به يجد الأخطاء النحوية والصرفية والأملائية تأخذ طريقها وسط الطالب والمشرّف لكن أكبر من كل ذلك حين يحضر المرء مناقشة رسالة علمية في مدرج مفتوح فيسمع كثيرا مما ينقص وبرغم ذلك يتجاوز الناس هذا التساهل ويخرجون بتقديرات يتعجب منها الحضور قبل الفاحص المتلمس. ومادروا أن الأخطاء الصرفية والنحوية واللغوية مما يجب الوقوف عنده ومحاسبة من يرتكبه باعتباره بدعة صارفه عن الحق وتساهل ردّ

الرسائل ومؤاخذه الفاحصين مهما كانت مواقعهم فى الجامعات والمعاهد العليا من أهل اللغة وأهل قرباها - بل لقد وصل الأمر فى هذا المجال الى أن تعقد مؤتمرات للغة العربية ويكون الحديث فيها بالعامية، ويدار النقاش بها - بل نجد التهاون فى العربية حتى فى المحافل الدولية، حيث يتكلم أحد المسؤولين العرب بها فلا حرمة لقاعدة ولا طريقه.

بل نجد الافتراء والاستهوان. هذا وفيما يلى الوقوف على بعض النماذج لهذه البدع من ذلك: علاقة بالكسر يقولونها للعلاقات المعنوية بينما هى علاقة بفتح العين وليس كسرهما لان الكسر للحسيات وليس للمعنويات ومن ذلك ابدال ال أم متابعة للنادر فيقولون جئت أم بارح - بدل البارح ويقول فناء المدرسة بفتح الفاء فى كلمة (فناء) والصواب كسرهما لأن الفناء بالفتح الموت - ويقولون فى الاذاعات وغيرها وصلنا الخبر الآتى. بدل وصل الينا لأن وصلنا تعنى اعطانا صلة من الصلات المتكرم بها.

ومن ذلك أيضا الوقوف بالتثوين على الاسم المنون مثلاً يقولون: جلس على «مُنفرداً». بتثوين منفرد عند الوقف بدل "منفرداً" بغير تثوين حيث يكون الوقف على الألف. كما نجد بعض المتكلمين لا يفرقون بين الكلمات التى على صورة المبنى المجهول من غيرها وهم على مستويات ثقافيه مشهوده فيقول: استهتر فلان بفتح التاء الأولى والثانية بدل ضم التاء الأولى وكسر الثانية. ويقولون عنى بفتح العين بدل عنى بضمها وكسر النون. كما نجد البدع فاشيه فى حروف المضارعة فى الفعل الرباعى مثل أريد، وأحب، ويشبه فبدل ضم الهمزة والياء الحادثة فى أول الفعل لأنها أفعال رباعية نجدهم يفتحونها ويزيدون كذلك حرف أن المصدرية متصلاً بضمير فى الجملة التى تتكون من هب مثلاً:- هبنى أنى قلت هذا بدل هبنى قلت هذا. قال الشاعر:-

هبنى أمراً منكم أضل بعيره *** له ذمة أن الذمام كبير^(١٩)

كما ظهرت البدع فى خلط الأفعال المتعدية بنفسها وتلك التى تتعدى بحروف الجر أو العكس. فنجد مثل التراكيب كان على يسير ليلاً بقرب القرية وقد نبحت عليه الكلاب.. وفى الحقيقة هذا الفعل يتعدى بنفسه تقول نبحت الكلاب. ومثله قولهم أنعشه الجو وأطربه جداً والحقيقة هى نعشه الجو يتعدى بذاته بدل الهمزة : كما تتضح هذه البدع فى عدم التفريق بين صيغة اسم الفاعل وصيغة اسم المفعول فى شهرة عجيبة يقول أحدهم قرأت المعوذتين بتشديد الواو وفتحها بصيغة اسم المفعول بينما الذى يطلق على هاتين السورتين. قل أعوذ برب الناس، وقل أعوذ برب الفلق «المعوذتين» بتشديد الواو

وكسرها بصيغة اسم الفاعل. ومن ذلك أيضاً وصلهم بين لولا وضمير المخاطب فيقولون :-

لولاك والوارد مكانها لولا أنت بضمير الرفع المنفصل قال القرآن الكريم «لولا انتم لكنا مؤمنين» ومن ادخال أل على بعض وكل، فى شيوع غير محمود. وكذلك ادخالها على كافة وهذه تضاف دوماً الى غيرها مثلاً - حدثنى كافة الناس وليس الكافة. ومن البدع الصرفية أيضاً التى يمكن للانسان أن يحدث عنها بنون حرج لأنها بدأت منذ أن سمع أول لحن فى البادية حين قال ذلك العربى «هذه عصاتى بدل عصاي» (٢٠).
إذ يقول عرب اليوم عجوزة أو العجوزة - بدل عجوز وامرأة عجوز/ كرجل عروس وامرأة عروس.

ومما جاء فى عين الكلمة من حيث «الضم والفتح والكسر» قولهم عَجَز بكسر الجيم والصواب فتحها قال الله تعالى «يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب» (٢١).
ويقولون رغم بكسر الفين المعجمة والصحيح رغم بفتحها ومما هو مشتهر «نعى» بإسكان العين وتخفيف الياء. والصواب نعى بكسر العين وتشديد الياء ويقولون مشورة بسكون الشين والصواب ضمها مشورة هذا ولم يخل فاء الكلمة من البدع أيضاً يقولون :- وقود بضم الواو والصواب فتحها قال تعالى «وقودها الناس والحجارة» (٢٢).

ويقولون نفاية بكسر النون والصواب نفايه بضمها إذ نفاية الشيء رداً عنه. ويقولون «قتله» بفتح القاف وسكون التاء والصواب كسرها ومن البدع حذف الهمزة من الفعل (أضج) فيقولون القوم ضجوا ومنها كذلك «أسيته» فيقولون : واسيته فى مثل (استخفيت) من فلان، اختفيت بنون سبب وهلم جرا. وقد أشار بن الجوزى رحمه الله لمثل هذه البدع فى زمانه ولكننا اليوم نراها قد اتخذت شكلاً بعيداً إذ عمت الأسماء والأفعال صحيحها ومعتلها الى درجة الطفيان ولا أرى مخرجاً منها الا بالتمكين للعربية الفصحى فى كل أنواع المعرفة والوسائل السمعية والبصرية ورفع قدرها فى المؤسسات الرسمية والاعتماد بها فى الأجهزة الإعلامية ومن المؤسف مثلاً أن تذكر للمسئول الأول فى الأجهزة الاعلامية أخطاء محددة من أناس محددين فلا يزيد الا ضحكاً. فانت تسمع الثلاثة (الأول) بتشديد الواو/ فى كلمة الأول بضم الهمزة وتخفيف الواو وتسمع «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم» تسمع قراءة «يخزهم» بفتح الياء وكسر الخاء وسكون الزاى والكلمة بضم الياء وسكون الخاء وكسر الزاى من الفعل أخزى وليس

وخز وغيرها مما لا حاجة لنا لذكره. وتسمع صورة الحجر بفتح
الحاء المهملة والجيم. بدل كسر الحاء وسكون الجيم وسمعنا مكرراً لا تسافر المرأة الا
ومعها مُحْرَم بضم الميم وسكون الحاء وكسر الراء والصواب فتح الميم وسكون الحاء
وفتح الراء. وسمعنا ولا تجعلوا الله عرضة لايمنكم بكسر الهمزة فى كلمة ايمان
بفتحها وهناك فرق بين الحلف والتصديق بالقلب والآية بفتح الهمزة اذ المراد الحلف
وغير ذلك مما يرد يومياً.

استشراف المستقبل النحوي

حين نتحدث عن هذا الاستشراف للمفهوم النحوي والأداء اللغوي العربية يجب أن نضع في اعتبارنا دور اللغة الخطير في المفهوم الحضاري للأمة ومقدرة الأجيال القادمة ومعرفتها بتراثها وأصالتها واستحضار ذلك في كل مراحل النشاط وصياغته وتمثله كتابة وقراءة والمحافظة المستمرة على ما ورثنا من السلف مع التركيز دائماً على النقاء والبقاء لهذا الموروث اللغوي الحضاري، ما كتب فيه وما قيل عنه وما يحمله من قيم ونشاط وما دار فيه من مواقف ومناقشات بما يحسن بنا أن نفهم في المراحل العالية - القضايا والمسائل التي دار فيها النقاش أو المجالس التي عقدت والمؤلفات وأغراضها ودوافعها وما حققته من نتائج كما يفهم الدارس ما حدث من استدراقات ودوافعها وما أُلّف من حواش وما أسقط كذلك وما استجد من تقارير ويتعرّف الدارس أيضاً على بعض المؤلفات وأسمائها ودلالة تلك المسميات والنظر في الواقع الذي تشتمل عليه تلك الكتب ومعرفة أسماء علماء العربية الذين ألفوا والذين لم تعرف لهم مؤلفات أو لم يصل إلينا منها ما يعرف من مؤلفات، مقروناً كل ذلك بالواقع الاجتماعي والثقافي لتلك الأجيال وتلك العصور، مقارناً ذلك بما استجد من آراء وما حدث من تطور ويتم كل ذلك في دراسة وصفية كوسيلة لرصد المتغيرات التي تحدث للنحو بخاصة واللغة بعامة، في نفوس الدارسين والمتلقين وما يصدر من كتب وصحف تتعلق بهذا الأمر. وهنا يحضرنا كثير مما تناوله بعض السلف في الدرس النحوي الذي راعوا فيه الواقع الاجتماعي والثقافي إذ نجد المؤلفات المنظومة وذلك في حد ذاته هدف كما نجد الشروح المطولة والشروح المختصرة ومسمياتها ونجد الاستدراقات والتتبع والكتب التي رامت الغايات التعليمية كصنيع الأبناء [ابن مالك وابن هشام وابن عصفور]

وسنستعين في هذا الموضوع بمقدمات بعض المؤلفات في هذا العلم الجليل الأمر الذي يجعلنا عادين الذين قاموا بها من الساعين لتسهيل النحو وتذليل كل صعوباته. هذا وسأختار ثلاث مقدمات على حسب التسلسل التاريخي - وثلاثة نصوص لكل منهم ليتبين لنا تنفيذ منهجهم الذي اختطوه في المقدمات مع الواقع الطبيعي للغة والدرس

النحوى مما نعتبره نماذج طيبة. وان كنا لا نهفل بعض الرجال الذين كانت لهم جهود فى الدرس النحوى ظهرت فى مُسمّيات كثيرة منها المختصرات والايضاحات والصفار والاستدراكات والمقنع والمغنى كما نجد أسماء تدلنا على المتابعة مثل كتب اللحن - وتقويم اللسان الى غير ذلك مما سعوا فيه وأوتوا بما عندهم من جهد يشكرون عليه مدى التاريخ النحوى واللغوى.

هذا وليس من فضول القول ان ذكرت أن هؤلاء الأبناء جاؤا بعد زمن نضج فيه النحو وظهرت كل معالمة وتطوراته ويانت للعيان والمسامع والقلوب ثمراته الحلوة والمرّة. ولنبدأ بابن مالك.

ابن مالك (ت ٦٧٢هـ)

يعد ابن مالك من المرغبين فى النحو الذين سعوا فى جهود مكثفة لتقديمه للناس والدارسين فدأب يقرب الفهم ويوضح الغامض وكانت محاولات تأليفه كلها تدور فى هذا الجانب، فهو يسعى من وراء تلك المؤلفات والمنظومات والشروح ان يخدم العربية ويسهلها لابنائها ولم أر من النحاة على الاطلاق من اجتهد اجتهاده وسعى سعيه فى حماس دافق وطيّ للزمان حتى يقدم ما قدّمه، ولقد ذكر د. محمد كامل بركات محقق التسهيل انه من الميسرين فى الشكل والموضوع يقول (التيسير هذا من ناحية الشكل والمنهج العام فى التأليف أما من ناحية الموضوع فالسمة الغالبة على ابن مالك فى النحو توخى السهولة والتيسير فى كل ما ذهب اليه من آراء واتجاهات. حتى انه ليصرح فى كثير من المناسبات بأنه اختار هذا المذهب لأنه المذهب الأسهل أو لبعده عن التكلف والتعقيد. واسم التسهيل أوضح دليل على اتجاه ابن مالك العام فى التحويل ان اكثاره من النظم انما هو لتيسير الحفظ والضبط على الدارسين). (٢٣)

ويظهر لنا هذا الأثر حقاً فى متابعتنا للمصطلحات التى استخدمها ابن مالك فعلى سبيل المثال :-

عبارة (نائب الفاعل) وعند الجمهرة المفعول الذى لم يسم فاعله وتظهر لنا دِقَّتُهُ اذا تبين لنا انه ينوب عن الفاعل الظرف والجار والمجرور.

والبديل المطابق - بديل عبارة بديل كل من كل -

المعرف بأداة التعريف - بدل المعرف بال -

- لغة يتعاقبون فيكم - بدل أكلوني البراغيث، وغير هذا وثبت مثل هذه الأشياء تظهر لنا الأدلة التي تقول انه كان حقاً من الميسرين الساعين لتقريب النحو ومصطلحاته .

هذا ولننظر إليه في التسهيل

قال في المقدمة باسطاً منهجه :-

(هذا كتاب في النحو جعلته بعون الله مستوفياً لأصوله، مستولياً على أبوابه وفصوله، فسميته لذلك تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد فهو جدير بأن يلبي دعوته الأكفاء، ويجتنب منابذته النجباء، ويعترف العارفون برشد المعرّي بتحصيله، وتأنف قلوبهم على تقديمه وتفضيله. فليثق متأمله ببلوغ أمله، وليتلق بالقبول ما يرد من قبله...).

وإذا كانت العلوم منحة إلهية، ومواهب اختصاصية فغير مستبعد أن يُدخّر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين أعاذنا الله من حسد يسد باب الانصاف ويصد عن جميل الأوصاف وألهمنا شكراً يقتضى توالى الآلاء ويقضى بانقضاء اللآء. وها أنا شارع فيما انتدبت إليه مستعيناً بالله عليه ختم الله لى ولقارئيه بالحسنى - وختم لى ولهم الحظ الأوفى فى المقر الاسنى بمنه وكرمه.

وها هو نموذج للتسهيل يمثل لغة سهلة وقواعد ميسرة نجده واضحاً فى باب «حبذا» :

قال:- أصل « حب » من « حبّذا » حبّ أى صار حبيباً فأدغم كفيّره وألزم منع التصرف، وإيلاء « ذا » فاعلاً فى أفراد وتذكير وغيرهما. وليس هذا التركيب مزياً فعليّة « حبّ » فتكون مع « ذا » مبتدأ خلافاً للمبرد وابن السراج ومن وافقهما، ولا اسميّة « ذا » فيكون مع « حبّ » فاعلاً فاعله المخصوص، خلافاً لقوم وتدخل عليهما « لا » فتحصل موافقة « بسّ » معنى، ويذكر بعدهما المخصوص بمعناهما مبتدأ مخبراً عنه بهما أو خبر مبتدأ لا يظهر، ولا تعمل فيه النواسخ ولا يقدّم، وقد يكون قبله أو بعده تمييز مطابق أو حال عامله « حب » وربما استغنى به أو بدليل آخر عن المخصوص. وقد تفرد

حبّ فيجوز نقل ضمة عينها الى فائها، وكذا كل فعل حلقى الفاء مراد به مدح أو تعجب وقد يجر فاعل « حب » بياء زائدة تشبهاً بفاعل أفعل تعجباً -

ابن هشام (ت ٧٦١)

من العلماء الأفاضل الذين عركوا النحو وعاشوه وجداناً وعقلاً ومارسوه في كل منعطفاته شيخ العربية المشرقي الذي ترمى ذكره في أرجاء كثيرة من عالم العربية ونطاقها، فالرجل قد حاول بلطافته وأدبه ان يلطف النحو ويؤدبه ويحلّي جيده بالسهولة واللغة والنصوص وخير دليل على ذلك كتابه شنور الذهب الذي يقول في مقدمته:-

(وبعد فهذا كتاب شرّحت فيه مختصرى المسمى ب « شنور الذهب فى معرفة كلام العرب » تمت به شواهد وجمعت به شوارده، ومكّنت من اقتناص أوابده. قصدت فيه إلى إيضاح العبارة لا إلى إخفاء الإشارة، وعمدت فيه الى لف المباني والأقسام لا إلى نشر القواعد والأحكام.

والترمت فيه أنى كلما مررت ببيت من شواهد الأصل ذكرت اعرابه وكلّما أتيت على لفظ مستغرب اردفته بما يزيل استغرابه وكلما أنهيت مسألة ختمتها بأية تتعلق بها من أي التنزيل واتبعنها بما تحتاج إليه من إعراب وتفسير وتؤويل وقصدي تدريب الطالب وتعريفه السلوك الي امثال هذه المطالب» (٢٤).

وهذا نموذج من منهجه.

في شرحه لبانت سعاد يقول : في مقدمته لها :-

والذي دعاني الي هذا التأليف غرضان سنيان :-

أحدهما التعرض لبركات من قيلت فيه صلى الله عليه وسلم .

الثاني : اسعاف طالب علم العربية بفوائد جلية اوردها وقواعد عديدة أسردها. (٢٥)

قال : ولا تمسك بالعهد الذي زعمت، الا كما يمسك الماء الغرابيل قوله : «ولا تمسك» عطف على فما تنوم وتمسك اما بضم التاء وكسر السين المشددة مضارع «مسك» بالتشديد واما بفتحها مضارع «تمسك» والأصل تتمسك فحذفت احدى التائين يقال مسك بالشيء وتمسك به وامسك واستمسك بمعنى واحد وقرئ (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) بضم التاء وفتح الميم وتمسكوا بضم التاء وسكون الميم وقرئ في غير السبع

بضمها .

وقال تعالى «فقد استمسك» قيل وفي التشديد معني التكثر وهذا وهم ، وانما بغير التشديد التكثر اذا لم يكن الفعل موضوعاً عليه كما في حدث وخير ولم يكن لافادة تعدي القاصر إلى المفعول كما في فرحته ولا التعدي لواحد الي التعدي لاثنين ، كعلّمت الحساب ومثال ذلك قتلت وكسرت وحوّلت وطوّفت .

وقوله : زعمت اما بمعنى تكفّلت ومصدره الزعم بالفتح والزعامة والتقدير : الذي زعمت به . كما قال تعالى «وأنا به زعيم» .

ابن عصفور (ت ٩٦٩)

ألف هذا الرجل كتباً مختلفة في النحو والتصريف حاول من خلالها تبسيط الدرس النحوي وتهوين أمره على الدارسين وقد دعاه ذلك لتناول من سبقوه في آرائهم وكتبهم وكان هناك من يتعصّب لأولئك فقابلوا آراءه بالاستهجان والاستنكار وحاولوا الرد عليه وهذا أمر وارد في كل عصر لكن المهم عندنا هي تلك الآراء والمشاعر التي أبدأها الرجل نحو مادة النحو ودرسها، وخير مثال له نجده في كتابه المقرب - يقول في منهجه عندما قدّم له:-

(فلما كان علم العربية من أجل العلوم قدراً وأعظمها خطراً إذ به تقوم للإنسان ديانته فتتم صلاته وتصح قراءته وكانت أكثر الموضوعات فيه لا تبرد غليلاً... ولا تحصل لطالبه مأمولاً. وانها بين مطولة قد أسرف فيها غاية الاسراف ومختصرة قد أجحف فيها غاية الاجحاف...أثار من النجاح معقود بنواصي آرائه... أبوزكريا... الى وضع تأليف منزّه عن الإطناب الممل والاختصار المخل، محتو على كليّاته مشتمل على فصوله وغاياته، عارٍ عن ايراد الخلاف والدليل مجرد اكثره عن ذكر التوجيه والتعليل يشرف الناظر فيه على جملة العلم في أقرب زمان ويحيط بمسائله في أقرب أوان)(٣٦)

ولننظر الآن كيف تناول ابن عصفور المبادئ بصورة قيمة سهلة تفي بالغرض وتقرب فعلاً القاصي من هذا الباب الأسلوبى.

باب النداء

(١) حروفُ النداء : (يا)، و (أيا)، و (هيا)، و (وا)، و (أى)، والهمزة، ممدودتين ومقصورتين.

(٢) اختصاصاتها ف (وا)، منها للمنوب وما جرى مجراه خاصةً.
(يا): تستعمل في جميع ضروب المناديات من : منوب، ومتعجب منه، ومُستغاث به، وغير ذلك، قريباً كان أو بعيداً، وسائرهما لا يستعمل الا في النداء الخالص.
فأما الهمزة، منها فللقريب خاصةً، وسائرهما للبعيد مسافة أو حكماً كالنائم، وقد تكون للقريب

(٣) أحوال المنادى:

والأسم المنادى غير المنوب، والمستغاث به، والمتعجب منه، أما أن يكون مفرداً أو مضافاً، فإن كان مضافاً كان منصوباً باضمار فعلٍ لا يجوزُ إظهاره.
وإن كان مفرداً، فإما أن يكون مطولاً أو غير مطول، فإن كان مطولاً، وأعنى به: ما كان عاملاً في غيره، لم يجز فيه أيضاً إلا النصب، نحو قولك: «يا ضارباً زيداً».
وإن كان غير مطول، : فإما أن يكون معرفة أو نكرة، فإن كان معرفة بُنِيَ على الضم، ويكون في موضع نصبٍ باضمار فعلٍ أيضاً.
وأن كان نكرةً، فإما أن تكون مُقبلاً عليها، أو غير مُقبلٍ عليها، فإن كان مقبلاً عليها، فهي أيضاً مبنية على الضم، كالعَلَم، وإن كانت غير مُقبلٍ عليها، كانت منصوبةً باضمار فعل.

(٤) الأسماء والنداء:

. والأسماء كلها يجوزُ نداؤها إلا المضممرات، والأسماء المعرفة بالالف واللام، والأسماء غير المتصرفّة، والأسماء اللازمة للصدر.
وقد يُنادى المضمّر المخاطب في نادر كلام، أو ضرورة شعر، وتكون صيغته صيغة المنصوب، نحو ما حكى من قول بعضهم :

«يا إِيَّاكَ قد كُفيتُكَ» (٣٧).

وقد تكون كصيغة (٢٨) المرفوع، نحو قوله (٢٩):

يا أبجرُ أبَنَ أبجرِ يا أُنثا

أنت الذى طَلَقْتَ عامَ جُعُتَا

فإن أردت كلاماً فيه الألف واللام، توصلت إلى ذلك بأى، أو اسم إشارة، نحو قولك: «يا أيها الرجل، ويا هذا الرجل»، أو بهما معاً، وذلك قليل، نحو قوله:

ألا أيهذا النَّابِجُ السيدُ ائْنى

على نأيها مُسْتَبْسِل من ورائها

ولا ينادى منها بغير وصلة، إلا اسم الله تعالى، لكثرة الاستعمال مع معاقبتهما لهمزة من (الاله)، أو فى ضرورة، نحو قوله (٣٠):

فيا الغُلَّامانِ اللَّذانِ فِراً

أَيَاكُما أنْ تُكسِباني شِراً

(٥) حذف حرف النداء:

ويجوز حذف حرف النداء، وإبقاء المنادى، نحو قوله تعالى: «يوسفُ أعْرِضْ عن

هذا» (٣١).

إلا أن يكون المنادى اسم إشارة، أو نكرة، مقبلاً عليها، أو غير مقبل، وقد يحذف من النكرة المقبل عليها فى ضرورة، نحو قوله (٣٢):

جَارِى لا تُسْتَكْرِى عَذِيرِى

أو فى شاذ من الكلام، نحو قولهم: «أَفْتَدِ مَخْنُوقٌ» و «أَطْرِقِ كِرا» و «ثوبى حَجَرٌ».

ولا يحذف مع اسم الإشارة أصلاً، ولذلك لُحِنَ المتنبى فى قوله (٣٣):

هذى بَرَزْتُ لَنَا فَهَجَتْ رَسِيْسَا

ثم انصرفت وما شفيت نَسِيْسَا

ولم يترك الرجل من منهجه الذي اختطه شيئاً الا طبقه . ونظرة واحدة لهذا الباب فى كتب النحو تجعل المرء على اقتناع كامل بأن الرجل كان حريصاً على التطبيق فلم يوجز باخلال ولم يطنب فى اسراف . ورغم ذلك كان هناك من يناكفه وينتقده وربما يمكننا ضم نقدم هذا الى الأنواع السابقة التى ترفض السهل الميسر وقد تمثل هذا فى تلك العاصفة القوية التى أثارها بعض النحاة من المغاربة فى الاندلس وغيرهم من النحاة المشرقين لا لأمر خطير وانما للتيسير والتقريب الذى قام به عالم جليل من

علماء العربية هو ابن عصفور رحمه الله .

فقد تناوله فريق منهم بالنقد والتجريح والتشنيع - حتى ان بعضهم حاول ان يرد ما فيه من براعة وجودة الي فضل غير ابن عصفور من النحاة - ومن الذين انتقدوه ابراهيم بن احمد بن محمد الجزري الانصاري الخزرجي - أحد علماء الاندلس ومن آثاره .. المنهج المعرب في الرد علي المقرّب - وابن الحاج احد علماء العربية في الأندلس الذي قال «إذا متّ بفعل ابن عصفور في كتاب سيبويه ما شاء. وقد رد علي ابن عصفور في كتاب سمّاه الايرادات علي المقرّب ٠٠ وحازم القرطبي وله شدّ الزنار علي جحفله الحمار.(٢٤)

هذا ومؤلفات ابن عصفور في نظري من النماذج الطيبة الميسرة التي تعمق الفكرة وتريح النفس ولا تكلفها شططاً الشيء الذي يساعدنا في ترسم السبيل التي نعالج بها بعض قضايا النحو المعاصرة .

استشراف المستقبل

في آراء معاصرة

لست أول من بث رأياً في مسألة التيسير هذه وان اختلفت المسميات من تيسير وتسهيل وتفقيه الخ .. ولكن طبيعة التناول قد اختلفت تماماً من حيث الوضع التاريخي والاستقراء العملي والاستبيان الذي يساعد علي اكمال الصورة واصدار الأحكام في شأنها وقد ذكرت ان الذين مارسوا تدريس النحو هم أقدر الناس علي الاحساس بمشاكله ، وبما يعانیه طلاب العربية في شأنه سواء اكان ذلك في مدرجات الجامعات او الفصول الدراسية . في التعليم العام او العالی وستقدم النماذج علي ذلك بدءاً بالشيخ ابراهيم مصطفى الذي يقول :

«هذا بحث من النحو عكفت عليه سبع سنين وأقدمه اليك في صفاحته اطمع ان اغير منهج البحث النحوي للغة العربية وان أرفع عن المتعلمين اصر هذا النحو وأبدلهم منه أصولاً سهلة يسيرة تقربهم من العربية وتهديهم الي حظ من الفقه بأساليبها ولقد بذل في تهوين النحو جهود مجيدة واصطنعت أصول التعليم اصطناعاً بارعاً ليكون قريباً واضحاً علي انه لم يتجه الي القواعد نفسها والى طريقة وضعها فيسأل «ألا

يمكن ان تكون تلك الصعوبة من ناحية وضع النحو وتكوين قواعده وان يكون الدواء في تبديل منهج البحث النحوي للغة العربية .

هذا السؤال هو الذي بدا لي وهو الذي شغلني جوابه طويلاً .

وتناول ذات الأغراض ايضاً د. شوقي ضيف والدكتور مازن المبارك في تقديمه للإيضاح في علل النحو . حيث يقول الدكتور شوقي ضيف في (ص ٥) :-

«ولعلي لا أبعد اذا قلت ان واجباً على من يحاولون تيسير نحونا أن يحيا نصوصه لقديمة حتى يضطلعوا بما يريدون من هذا التيسير عن علم وبصيرة»^(٣٥).
ويقول د. مازن المبارك :-

«وحسب صاحبه انه كان من الرواد الأوائل الذين فقهوا وتعمقوا أسرار قواعدها ثم حاولوا التبسيط والتيسير ما استطاعوا الي ذلك سبيلاً» .
ويقول عن اغراض الزجاجة في الايضاح :

«فمن هذه الاغراض مثلاً أن يسعى لتقريب النحو من الفهم وتيسير الوقوف على اسراره وقد عنى الزجاجة بالمبتدئين واهتم بهم وألف لهم . وكذلك هو في الايضاح يهتم بهم ويجعل تقريب النحو لهم من اغراضه ولو أدى به ذلك لتغيير ألفاظ النحاة قال:

«والاحتجاجات على ثلاثة أضرب منها ما كان مسطراً في كتب البصريين والكوفيين بألفاظ مستفلة صعبة فعبرت عنها بألفاظ قريبة من فهم الناظرين في هذا الكتاب فهدبتها وسهلت مراتبها والوقوف عليها .

ويقول الدكتور حماسة :-

«انه اذا أريد للنحو ان يكون له دور واضح في حياتنا المعاصرة سوى التخطئة والتصويب ... ان يسلك احد سبيلين:

اولاهما : أن يتجه النحو الى العربية المعاصرة في نصوصها الفصيحة فيجمع تراكيبها ويصف انماطها ويقدم وصفاً دقيقاً لها ...

والاخرى ان يعمد النحويون المعاصرون الى النصوص العربية قديمها وحديثها كما فعل الاسلاف العظماء مع القرآن الكريم والشعر ودواوينه ومختاراته فيحاولوا ان

يكشفوا دور النحو في بنائها ويبينوا ما تقوم به المعطيات النحوية في تركيبها وترابط اجزائها واستواء هيئتها وما تقدمه في انتاج دلالاتها وقيمة هذا الدور في تحديد الدلالة وبذلك يرتبط النحو في الأذهان - وخاصة اذهان الناشئة بجانب عملي نافع مفيد من جانب وبالدلالة من جانب آخر (٣٦)

أما فيما يقوله مدرسو العربية في التعليم العام فتقول إحدى استاذات اللغة العربية في تقرير لها :-

«في السنة الثالثة الثانوية بمدرسة البلك الثانوية للبنات - القسم العلمي، حيث ضم الفصل قرابة السبعين دارسة وبعد ما قدمت لهن إحداً من تعريف لما حضرنا من أجله وملأت قرابة الخمس عشرة طالبة الإستبيان طلبنا من البعض القراءة الجهرية لبعض النصوص التي يكتبهن وقد لاحظت أن معظم القارئات لم يبنّ ويفصحن بين السين والثاء، والظاء تحول مخرجها فصار خلف الأسنان أو من اللثة بدلاً من بين الأسنان وقد نحت القاف نحو الغين في نطقها. وإن ظهرت جودة قراءة البعض لنصوص قرآنية أما الشرح والتفسير فكانت غالبية الكلمات ساكنة وحتى التي تود أن تقرأ بالشكل لا تستطيع قراءة سطرين كاملين أو جملتين كاملتين مجردتين عن الأخطاء النحوية. كما لاحظت عدم التمييز بين ال الشمسية وال القمرية.

أما عن الإنشاء فقد جاءت بأسلوب أشبه بالعامية منها للفصحى مثل ! قال الزُّراع : نتوجه صباح اليوم الثاني إلى المحافظة».

عن بعض الأسئلة التي طرحت إليهن للإجابة عليها أجابت بعض الطالبات :-

١/ ما مدى أهمية دراسة اللغة العربية بوصفك طالبة بالقسم العلمي ؟

١/ قالت إحدى الطالبات إن اللغة العربية سوف لن تفيدها بشيء لأنها تتحدث العامية وهي لغتها الأم وليس هناك كبير فرق بين ما نتحدثه في العامية وبين ما ندرسه في المدرسة سوى بعض الدروس النحوية المعقدة التي ذكرتها وزميلاتها في استبيانهن وقالت أخرى : مؤكدة حديثها «بإذن الله» سوف لن تزيد على ما تلقى من علوم العربية ودراستها أكثر من عامها هذا وقد هاجمتنا بسؤالها عن أهمية حفظ المعلقة بالنسبة لهن وما هي الفائدة من هذا الأسلوب القديم لفظاً ومعنى وشحن عقولهن به.

٢/ كيف يمكن لَكُنَّ حفظ التراث العربى وكتابته وصيانتة ؟

فردت احداهن إننا نستطيع ان نكتبه بما تعلمنا فقط وسوف لن نحتاج الى مزيد.

٢/ وسألتهن عن مدى تأثرهن بوصفهن طالبات بالقسم العلمى عن المادة اذا ما قدمت اليهن بأسلوب جميل مصوغ باللغة الفصحى وعن نتاج قدم إليهن بأى طريقة ؟
فأجابت احداهن لا يهمننا الا الحقيقة العلمية ونتيجة التجربة فقط ونسجلها كما يحلو لنا وبأى طريقة شئنا.

٤/ أعربى: يا عبادى لا تقنطوا من رحمة الله.

بعد ضجة شديدة ورفض للإعراب حاولت إحداهن ولم توفق ولم تقدم أى طالبة أخرى لخوض هذه التجربة.

٥/ الشعر العربى القديم والحديث ماذا تعرفين عنه ووجهة نظرك ؟

لم تكن من بين الطالبات من تهتم بالشعر العربى ولم تكن هناك أدبية.
هذا بعض ما سجلته استاذة اللغة العربية فى بعض المدارس الثانوية وكان ذلك من قبل اربعة عشر عاماً.

هذا ومن قبيل الاستكمال لهذه الصورة المعيشة أود أن أقول إنه من الأمور التى أدخلت السرور على نفسى وأنا أعالج هذا الموضوع أنى وجدت بحمد الله استطلاعاً نموذجياً كذلك لبعض طالبات المدارس الثانوية وكان ذلك فى عام ١٩٧٩م واستخدمت فى مكان النحو كلمة قواعد عند تسجيل الأسئلة إليهن لأنهن كن لا يفهمن النحو بالاصطلاح المعروف عند توجيه الأسئلة إليهن دون طلب ذكر الاسم تشجيعاً للصدق فى الاجابة ورفعاً

للحرج كما كنا نهدف من خلال هذا العمل والايضاح أن نربط النحو بالمجتمع وبالواقع المعيش حتى يتضح العمل الذى يتوجب على أهل العربية القيام به لتكتمل الصورة مع صنيع علمائنا فى الوقت الحاضر ممن سَعَوْا فى هذا المنحى وممن قاموا بمحاولة تجديدات وما حدث لعملهم من تطور أو إقبار مما يدخل كله فى المنهج الذى سلكناه فى استخدام المنهج الوصفى كوسيلة لرصد المتغيرات كلها حتى هذه الساعة فى الفهم واللغة وفى المجتمعات وكل ذلك كان الغرض من وراءه تحقيق الغاية العلمية الخالصة أو

يمكن القول بأنها غاية علمية ممزوجة بالتعلم.

أما الأسئلة التي وضعت فكانت كما يلي:-

١- ما نوع الدروس التي تركت في نفسك أثراً عند دراستك للغة العربية منذ المرحلة الابتدائية ؟

٢- ما الأبواب التي درست لك في القواعد وكانت لك مزعجة ؟

٣- اذا كانت هناك صعوبة أو سهولة على ما ذكرت فهل كان ذلك في نظرك يرجع الى الاستاذ أم الى الكتاب ؟

٤- هل تفضلين أن تدرس لك القواعد مباشرة عن طريق الأمثلة التي توضح القاعدة أم عن طريق النصوص ؟

٥- لو طلبت منك أن ألقى عليك درساً في القواعد فما الباب الذي تفضلين أن يدرس لك ؟

٦- ما هو احساسك حين تستمعين الى شخص يتحدث باللغة العربية الفصحى ؟
وقد تفاوتت الاجابة على هذه الأسئلة لكن هذه اجابة خمس طالبات كما ذكرت
بون تعديل فيها ليتحدث الواقع عن نفسه:-

هذه اجابة الطالبات

الطالبة الأولى :-

١- الانشاء لو أنها كانت تعطى اسبوعياً الا أننا نكتب كل عام أقل من خمسة موضوعات. الأدب أحبه منظوماً ولا أحبه نثراً.

٢- الاعلال - التصغير.

٣- كان باب الاعلال صعباً على لاننى لم أحضر أول حصة درُست فيه فتعسر على فهمه.

٤- أحب أن تدرس مباشرة.

٥- أحبها من البداية.

الطالبة الثانية :-

١- أحب دراسة الأدب وقد تركت أثراً عميقاً في نفسي وبصراحة كنت لا أحب

دراسة القواعد ولا زلت ربما لا أفهمها. وعندما أقرأها يصيبني صدام ابتلع بعده «
حبة اسبرين».

٢- فى الابتدائية والثانوى العام كنت لا أجد صعوبة فى دروس القواعد والاعراب خاصة ولكن عندما وصلت المرحلة الثانوية العليا وجدت نفسى قد نسيت الدروس وأصبحت القواعد شيئاً غير مريح بالنسبة لى الا انه توجد بعض الدروس كانت سهلة لطيفة سريعة الفهم وربما كان للاستاذ أثر فى ذلك.

٣- طبعاً للاستاذ الأثر الأعظم، وله دور كبير فى التأثير على نفوس تلاميذه فكلما كان الاستاذ واضح العبارات وكان ذا حماس للدروس التى يلقيها كلما تركت هذه الدروس نفسها أثراً على الطالب وشدت انتباهه.

٤- أفضل أن تدرس القواعد عن طريق النصوص كآيات القرآن والأحاديث والأشعار، لأن هذه الطريقة تجعل الطالب منتبهاً لكل كلمة يقولها الاستاذ ويكون متشوقاً لمعرفة القاعدة.

٥- احب ان ادرس مبادئها.

٦- احب دائماً أن يعبر الانسان عن نفسه باللغة العربية وان من يتحدثها لا بد أن يجيدها.

الطالبة الثالثة :-

١- من القواعد نائب الفاعل أما دراسة الانشاء فكانت « نص نص » أما التوجيه الأدبى والمطالعة التوجيهية فلا أود الحديث عنها لكرهى الشديد لها.

٢- (المزعة) المبتدأ والخبر. اسم كان والفعل المعتل وأقسامه من الثانوية العامة واسم إن. أما الدروس المريحة فكانت الفاعل والمفعول به والمطلق والمفعول لأجله وأسم الهيئة والحال ونائب الفاعل والمقصود والمنقوص.

٣- فى رأى ان الكتاب كان فى بعض الدروس على شىء من النقص أما العبء الأكبر من الدروس التى لم أفهمها كان يرجع إلى الأستاذ فلو كان يعطى الدروس على شىء من الثقة ارتحت له وفهمت ما يعنيه ولكن كان يعيب الاستاذ والاستاذة على السواء النقص فى سرد المادة.

٤ - أفضل الدروس عن طريق الأمثلة على السبورة لسهولة معانيها حتى يفهم الدرس من أول وهلة أما النصوص فعلى شيء من التعقيد لأنها تحتاج إلى شرح أولاً ثم الفهم بعد ذلك.

٥ - الاعلال.

٦ - أفضل المتحدث بالعربية الفصحى لأنه عربى ويجب أن يعتز بعربيته وقوميته ويجيدها.

الطالبة الرابعة -

١ - أحببت القواعد منذ السنين الأولى في الابتدائية إلا أنني في الثانوية العامة أصبحت أكرهها.

٢ - أحب البلاغة.

٣ - يرجع الى الكتاب لأن الأمثلة غالباً ما تكون من الشعر وتحتاج الى شرح وذلك مما يعقد في الكتاب.

٤ - مباشرة على السبورة

٥ - الاعلال والإبدال.

٦ - انزعج وأغضب جداً عندما يتكلم انسان باللغة العربية ويخطئ فيها.

الطالبة الخامسة -

١ - دروس القواعد - دروس البلاغة لا يستفيد منها الانسان في حياته اليومية -

دروس الانشاء غير مفيدة لأنها كانت نفس (المواضيع) (الصواب الموضوعات) في كل

المراحل - فى الصف الثالث التوجيه الأدبى والمطالعة التوجيهية (ما مفيدة).

٢ - المزعجة الاعلال والابدال - المنقوص والمقصور - الأفعال الخمسة والأبواب التى كانت مريحة مثلاً:

الفاعل - المفعول به - النسب - اسم الفاعل - اسم المفعول.

٣ - بعض الكتب التى لم يكن فيها التوضيح التام - بعض الأساتذة (يكلفون) المادة

التي تدرس ولم يشرحوها شرحاً تاماً وافياً ويعطون ملخص الدروس من غير شرح.

٤ - أفضل عن طريق السبورة وتكون واضحة.

٥ - الاعلال والابدال لأننى لم أفهمه جيداً.

٦ - ان كان يجيدها أرتاح له وان كان يخطئ فإنه يسبب لجميع الناس (ضيقاً) فى

النفس ولا يجب أن يتحدث بها.

الطالبة السادسة:-

١ - دروس الأدب فى الابتدائى والثانوى العام كانت جيدة - ولكن القواعد كانت تدرس بطريقة رديئة وفى الثانوى العام بالذات - أما البلاغة فندرسها بطريقة تجارية - أما المطالعة التوجيهية والتوجيه الأدبى فلا فائدة فيها ولا ثمرة لها أما الانشاء فكل المواضيع (الموضوعات) جافة لا تستحق الكتابة.

٢ - فى الابتدائية كانت القواعد بسيطة وفى الثانوى العام (حاجات) عدة لا أحبها (ناس) اسم كان واسم ان والمقصود والمنقوص والضمائر (وناس) الأفعال الخمسة والأسماء الخمسة أما فى الثانوى العام (كانت فى دروس ثقيلة).

٣ - الصعوبة ان الكتاب لا يفى بالشرح والاستاذ ربما كان (شاطر) ولكنه لا يدرس مادته باتقان فينقلها نقلاً من الكتاب. (تحدثت هذه الطالبة عن كراهتها للاستاذ الذى يدرس من كتاب يحمله فى يده أو يضعه على الترييزة وهو مفتوح وتقول: هذا الكلام لا ينطبق على الأدب.

٤ - عن طريقة مباشرة:

٦ - أحس بالفخر عندما اسمع شخصاً يجيد اللغة العربية لأنها لغتنا ولكن أحس

(بالقرف) عندما اسمعها (وهى مكسرة) وغير مجادة.

هذا ومن خلال هذا الطرح من قبل الطالبات الثانويات يظهره لنا بوضوح ما يعانيه الطلاب من الدرس النحوى، فتارة نرى مصدر الصعوبة منذ تأسيس المادة وتلقيها من البداية والاستمرار على ذلك النمط. وتارة نرى الطالبات يرجعن الصعوبة التى تقابلهن الى الكتاب وطريقته وبعضهن يرجعن سبب الصعوبة الى الاستاذ الذى لم يكن يجيد تقديمه للمادة من حيث الشرح والتوضيح وتكرار ما يستحق التكرار وعدم الحماس للمادة التى يقوم بتدريسها.

كما أننا نلاحظ أن أبواباً كثيرة أشارت الطالبات لها مما يؤكد عموم الصعوبة واكتنافها لمعظم أبواب النحو باستثناء الفاعل والمفعول به والمفعول المطلق، أما الصرف فكان الاجماع على صعوبته مما يؤكد ضعف المعالجة من الكتاب والأساتذة إذ لو كان الأمر يتعلق بالأستاذ لوجدنا بعض الاشارة اليه أو من الكتاب وحده لوجدنا ذلك أيضاً مما يوجب علي المدرسين للعربية إعادة النظر في طرائقهم وفي كتبهم ومحاولة تحبيب أبناء العربية فيها مع استلطاف التلاميذ وتسهيل الصعب وإن أدى الأمر الي إعادة الدرس كرات وكرات. والاهتمام بالكيف أولى من الاهتمام بالكم. والتنوع في تقديم المادة من حيث الأمثلة المجردة تارة وعن طريق النصوص تارة أخرى أمر لابد منه. وهو ما يمكن ان نسميه أسلوب المزاوجة بين التجريد والتطبيق.

هذا كما نلاحظ ضعف الأساليب والتعبيرات عند ذات المجيبات واستخدام بعض الكلمات العامية في أثناء الاجابة عن الاسئلة مما يدل علي ترهل واضح في العربية برغم أن بعضهن يبدن التقزز من سواهن ممن يخطيء في العربية.

وقفة ونتائج

أولاً :

دراسة تاريخ النحو وما ألف فيه وما دار من مناقشات وما عقد من مجالس وما تم من مناظرات وما حدث من استدراكات ومختصرات وتفريعات وما ألحق من حواشٍ أو ما اسقط، ومعرفة من ألف من العلماء ومن لم يؤلف.

ثانياً:

التعرض للواقع النحوي في أزمنة مختلفة ويعنى ذلك الوقوف المتأنى لعلاقة النحو بالمجتمع وماذا صنع النحاة إزاء ذلك الواقع مقارناً بما صنعه النحاة في وقتنا الحاضر وما قاموا به من محاولات وتجديدات وما حدث لذلك من تطور أو إقبال حتي نربط دور اللغة المتواصل في المفهوم الحضاري للأمة ومدى مقدرة الأجيال علي فهم التراث واستحضاره. والمحافظة علي إبقائه ونقاؤه.

ثالثاً:

السعى الدائم لمعرفة الأسس والطرق والوسائل التي تكفل الترغيب في النحو وتعطى الثمرة المرجوة من دراسته.

رابعاً:

استخدام الدراسة الوصفية لرصد التغيرات التي تحدث للدراسة النحوية الساعية نحو الغاية العلمية الخالصة الممزوجة بالتعلم والتعليم التي تستعين بالمجهود القديم والحديث لتحقيق الغرض من دراسة اللغة كصنع الخطيب التبريزي والمبرد وابن مالك وابن هشام وابن عصفور وغيرهم من علماء العربية مقروناً بمسعى المحدثين الذين هضموا القديم واطلعوا على الجديد مما يمكن أبناء العربية منها فهماً وممارسة.

كل ذلك يعيننا في تناول (جنور الفكرة العربية الشاملة ومناهجها التي فحواها ألا توزع المواد الى بلاغة ونحو وصرف وقراءة وأدب الى غير ذلك دون ربط وإنها تعطى في شكل جرعات مركزة - نتناول جزئيات بعينها مترابطة في تطبيقات محسوبة بحيث تشمل كل المطلوب من اعطائه للكلبيات التي سنصل اليها في النهاية، ونحن بهذا التصور نحتاج الى الفهم العميق وسنقابل دون شك العنت والمشقة ونحتاج الى جماعة

من النحاة واللغويين يتوفرون على اخراج مؤلفات محددة لتقى بهذا الغرض فى منهجية واضحة، ولعلّ ما قام به المبرد فى الكامل له دلالتة الكبرى. وعلى العموم فإنّ المنهج الذى تتبعه الاسلاف فى تيسير العربية على الناشئة كما رأينا والعمق فيها وشمولها وتعليمها تعليماً سهلاً كان واضحاً فى كل أعمالهم وهو يضمن لنا قواعدا الأساسية فى صيغ أشبه ما تكون بقوانين مركزة كى يحفظها الناشئة حتى يتسنى لهم اليوم درسها وتدريسها دراسة تتيح لهم استيعاب أوضاعها وأسرارها وتمثلها تمثلاً بيناً. بحيث يخدمها فى بنيتها اللفظية وتراكيبها التعبيرية ودلالاتها وعطائها المعنوى واستجابتها لكل حاجات الانسان وتطورات حياته اصالة ومعاصرة.

الهوامش

- (١) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ص ١٣٩
- (٢) دراسات فى اللغة والنحو العربى ص ٨٨ - د. حسن عرن
- (٣) إرشاد الأديب لياقوت ص ٤٦
- (٤) الأشباه والنظائر ص ٧٢ للسيوطى
- (٥) دلائل الاعجاز ص ٢١ عبد القاهر الجرجانى
- (٦) المرجع نفسه ص.
- (٧) المرجع نفسه ص.
- (٨) دلائل الاعجاز عبد القاهر الجرجانى ص ٢١ - ٦٨
- (٩) سورة يوسف الآية: ٦٣ .
- (١٠) الأشباه والنظائر ص ٣ و ص ٣٤ - ٣٥ للسيوطى
- (١١) الأشباه والنظائر ص ٣ و ص ٦٤ - ٦٥ - ٦٧ - ٦٨ للسيوطى
- (١٢) نزهة الألياء. فى طبقات الأدباء - لأبى البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارى ص ١٨٧ .
- (١٣) طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى ص ٥٨١ طبعة دار المعارف مصر.
- (١٤) اخبار النحويين البصريين ص ٧١ .
- (١٥) الخصائص ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ابن جنى .
- (١٦) المغتضب ص ١٤٣ للمبرد .
- (١٧) الخصائص ص ١ ، ص ٢٧٢ ابن جنى
- (١٨) تقويم اللسان ص ٢٠٥ ابن الجوزى
- (١٩) اصلاح المنطق ص ٢٩٧ ابن السكيت
- (٢٠) تقويم اللسان ص ٢٠٥ ابن الجوزى
- (٢١) سورة المائدة الآية « ٣١ »
- (٢٢) سورة التحريم الآية « ٦ »
- (٢٣) التسهيل لابن مالك ، ص ٤٤ تحقيق محمد كامل بركات .
- (٢٤) شذور الذهب لاب هشام .
- (٢٥) شرح بانث سعاد لابن هشام ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .
- (٢٦) المقرب لابن عصفور .
- (٢٧) أنظر : أوضح المسالك ٧٢/٢ .

(٢٨) فى د : (تكون صيفته صيغة المرفوع).

(٢٩) هو سالم بن دارة، يقوله فى : (مر بن واقع). ونسبه الأزهرى تبعاً للعينى الى

الأحوص، وصدره فى: أوضح المسالك: يا مر يا بن واقع يا أنتا.

أنظر أوضح المسالك ج٢ ص/٧٢، وشرح الفصل ١/١٢٧. ١٣٠.

(٣٠) هذان شطران من الرجز المشطور، وقائلها مجهول، وهما فى شرح الفصل ٩/٢

وشرح الكافية ١/١٣٢، والخزانة ١/٣٥٨، والانصاف ١/٣٣٦.

(٣١) الآية/ ٢٩ سورة يوسف.

فى د : (تكون صيفته صيغة المرفوع).

(٣٢) هو العجاج بن رؤبة، وانشده بن هشام فى أوضح المسالك ٢/١٠٢.

(٣٣) انظر ديوانه ج٢ ص ٢٥٩ وفيه: انثنت.

(٣٤) بغية الدعاة ص ٢٠٤ - نفع الطيب ص ٥٢٢ ط اوربا - مقدمة المقرب للمحقق

ص ٤٤-٤٥.

(٣٥) الايضاح فى علل النحو ص ١٦ ص - ٥ - وصفحة ١٥/١٩ ١٥/١٩

الزجاجي النحوي.

(٣٦) الجملة فى الشعر العربى ص ١٦ - ١٧ د. محمد حماسة

المراجع

- ١/ القرآن الكريم
- ٢/ احياء النحو - الاستاذ ابراهيم مصطفى - مطبعة التأليف والترجمة والنشر القاهرة.
- ٣/ اخبار النحويين البصريين - لأبى سعيد السرافى - تحقيق د. محمد ابراهيم البنا دار الاعتصام مصر - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ٤/ إرشاد الأديب. لياقوت الحموى دار المأمون ١٢٢٣ .
- ٥/ الأشباه والنظائر لجلال الدين السيوطى - دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م.
- ٦/ اصلاح المنطق لابن السكيت . تحقيق - احمد محمد شاكر - وعبدالسلام هرون.
- ٧/ الامتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى.
- ٨/ الانصاف فى مسائل الخلاف لأبى البركات الانبارى - القاهرة ١٣٦٤.
- ٩/ أوضح المسالك لأبن هشام القاهرة ١٣٥٤.
- ١٠/ الايضاح فى علل النحو لأبى القاسم عبدالرحمن الزجاجى النحوى تحقيق د. مازن المبارك - دار العروبة.
- ١١/ بغية الوعاة - لجلال الدين السيوطى. تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم المكتبة العصرية بيروت.
- ١٢/ تقويم اللسان للأمام أبى الفرج عبدالرحمن الجوزى تحقيق د. عبدالعزيز مطر دار المعرفة القاهرة ط أولى ١٩٦٦م.
- ١٣/ التسهيل - لأبن مالك. تحقيق د. محمد كامل بركات.
- ١٤/ الجملة فى الشعر العربى د. محمد حماسة..
- ١٥/ الخصائص - لأبن جنى دار تحقيق محمد على النجار/ دار الكتاب بيروت.
- ١٦/ دراسات فى اللغة والنحو د. حسن عون.
- ١٧/ دلائل الاعجاز لعبدالقاهر الجرجانى المطبعة العربية بمصر.
- ١٨/ ديوان رؤية بن العجاج - عنى بنصحيحة وليم بن الورد الروس دار الافاق الحديث.

- ١٩/ طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي دار المعارف مصر.
- ٢٠/ المقتضب للمبرد. تحقيق عبدالخالق عزيمة عالم الكتب ببيروت.
- ٢١/ المقرب لأبن عصفور.. تحقيق أحمد الجبوري وآخرون مطبعة العاني بغداد.
- ٢٢/ شرح بانت سعاد - لأبن هشام. تحقيق د. أبوناجي.
- ٢٣/ نزهة الالباء فى طبقات الأدباء لأبى البركات عبدالرحمن محمد الانبارى
مطبعة احياء ثائر العرب - العرب القاهرة ١٢٩٤هـ..
- المسألة

١/ مسألة : قامت بها مدرسات بالمدارس الثانوية.

٢/ مسألة : د. محمد أحمد الشامى.

